تنزيه الله تعالى بين التأصيل القرآني والفهم الإنساني

- دراسة تحليلية موازنة -

د/ لمير طيبات

جامعة الأمير عبد القادر -قسنطينة-

كانت ومازالت عقيدة الألوهية بين التنزية والتشبيه مثار جدل كبير في تاريخ المسلمين الفكري، إذ لم يتوقف هذا الجدال إلى اليوم وإن قلت حدته عما كان عليه سابقا.

وانطلاقا من الواقع المعيش لطلابنا المتعلمين اليوم، و المتشوفين إلى رؤية واضحة لهذه المسألة بعيدا عن روح المذهبية المتعصبة أردت في هذه المحاولة المتواضعة كشف النقاب عن الأسباب الحقيقية، سواء كانت ذاتية أو موضوعية لظهور هذه المسألة في تاريخ التفكير العقدي الإسلامي، محاولاً في نفس الوقت التماس المخرج الأسلم لهذه المسألة التي تحولت إلى إشكالية فكرية، ومثبتاً في نفس الوقت أنَّ ما بقي من جدال في هذه المسألة بين علماء الإسلام سلفاً وخلفاً هو في الحقيقة جدال شكلي يتعلق بالمنهج ولا يتعلق بجوهر التنزيه الذي يجمع الكل على الاتفاق عليه، والذي لا يبرر تشبث بعض المثقفين المسلمين بإثارة الخلاف حول هذه المسألة ومتعلقاتها.

معنى مخالفة الله للحوادث هو : عدم مشابهته أو مماثلته[1] لأي من مخلوقاته سواء كانت بشرا أو غيرها، في ذاته وصفاته، والعقل يدرك بداهة أنّ الخالق أعظم شأناً وأكمل ذاتاً وصفاة وأبعد أن يكون كمخلوقاته المفتقرة إليه في وجودها وفي كل شؤونها في ذاته أو صفاته، ودليل ذلك من القرآن قوله تعالى: " ليس كمثله شيء "[2]. فليس كالله سبحانه شيء من الأشياء، لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له[3] . وليس في تسمية الله بالشيئية كما في قوله تعالى: " قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيدٌ بيني وبينكم "[4] . أيُّ إلهام بالتشبيه فيرى الإمام أبو حنيفة(ت150هـ/767م) [أنَّ الله شيء لا كالأشياء أي أنه ذات بصفاتها، يتنزه عن مماثلة الذوات والصفات الأخرى عند غيره] [5] . إذا الشيء لا يصح حصر معناه في الجسم، لأنه يتعدى الأجسام والأعراض، والجواهر،وكل ما يعلم، وما لا يعلم. قال الإمام الزمخشري(+528هـ) : " الشيء أعم العام لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، فيقع على القديم والجرم والعرض والمحال والمستقيم، ولذلك صح أنّ يقال في الله عز وجل: شيء لا كالأشياء، كأنك قلت: معلوم لا كسائر المعلومات، ولا يصح جسم لا كالأجسام. وأراد أيُّ شهيد(أكبر شهادة) فوضع شيئاً مقام شهيد ليبالغ في

---

(1) ــ لم أجد فرقا بين المماثلة والمشابهة، فكلمة مثل[هي كلمة تسوية كما يقال: هذا مثله ومثله كما يقال: هذا شبهه وشبهه] أبو بكر الرازي، مختار الصحاح،(بيروت: مكتبة لبنان، 1986)ص 256،[والتشبيه هو التمثيل] المصدر نفسه/138 .

(2) ــ الشورى / 9 .

(3) ــ ابن كثير، التفسير،(لبنان: دار الأندلس. د ت) ج6 ص 191.

(4) ــ الأنعام / 20 .

(5) ــ علي سامي النشار. نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام .(مصر: دار المعـارف،1977م)، ج2 ص 235.

التعميم"[1] والشيء عند عامة المعتزلة كذلك: " اسم يقع على ما يصح أن يعلم ويخبر عنه"[2]. وخلاصة [ما اتفق عليه المسلمون: أنّ الله تعالى شيء لا كالأشياء] [3]. إنّ الآية السابقة في سورة الشورى كافية وحدها لجعل المسلمين مترهين لله تعالى بصفاته وأسمائه عن التشبيه والتجسيم، وتغنيهم عن الخوض والبحث المعمق في مسألة الصفات، لكن ظهور بعض المبتدعة في آخر عصر الخلافة الراشدة الذين لا يريدون للإسلام والمسلمين خيراً عملوا على إثارة إشكاليات عدّة في أصول الدين، منها: إشكالية تشبيه صفات الله تعالى بصفات المحدثات، التي أثارها هشام بن الحكم[4] (ت 198هـ/814م)، والتي ناظره فيها شيخ المعتزلة الأكبر أبو الهذيل العلاف(ت 234هـ/849م) [5]. هي التي حرّكت الجدال الفكري حول هذه المسألة إبتداء من ذلك الوقت. كما كان لأصحاب الإعتقادات الدينية غير الإسلامية أثر في ظهور هذه المسائل الأصولية، بما أثاروه من جدال حول الأصل الأكبر للعقيدة الإسلامية وهي الألوهية[6]. فانبرى علماء الإسلام بالرّد عليهم، ذودا عن العقيدة الإسلامية باعتمادهم إلى جانب البرهان النقلي، البرهان العقلي والمنطقي كما فعلت

---

(1) ــ الزمخشري، الكشاف، (بيروت: دار المعرفة، د ت) ج2 ، ص 9.

(2) ــ عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة،(الجزائر: موفم للنشر،1990م) ج1 ص 152 .

(3) ــ أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين، تح وتقديم محمد محي الدين عبد الحميد(القاهرة: دار الحداثة،1985) ج1 ص 238 .

(4) ــ يرى الشهرستاني أنه من متكلمي الشيعة الغالية. الملل والنحل، تح وتقديم محمد سيد كيلاني(بيروت دار المعرفة1984) ج1 ص 184 .

(5) ــ الشهرستاني، المصدر السابق ص 22- 30، و 184.

(6) ــ لمزيد من الإطلاع على أثر العقائد غير الإسلامية في إثارة البحث الكلامي في الفكر الإسلامي ينظر، ابراهيم مذكور في الفلسفة الإسلامية: منهج وتطبيق، ج2/ صص 24-29.

المعتزلة. لكن بعضهم نتيجة لمجاراتهم للسفهاء من أصحاب العقائد الأخرى أطلقوا عنان العقل في بحث المسائل موضوع الجدال، كمسألة الصفات، الأمر الذي أدّى ببعض الطوائف الكلامية الإسلامية إلى الزلل في وصف الله تعالى مع أنَّ غرضهم هو التنزيه، فكان ذلك سبباً في ظهور جدل آخر بين المسلمين أنفسهم تمثله طوائف المتكلمين الإسلامية المختلفة، ومنه الجدال حول كيفية تنزيه الله تعالى عن غيره من المحدثات بناء على طريقة فهم نصوص آيات الصفات الواردة في القرآن الكريم كقوله تعالى:" ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلالِ والإكرامِ "[1] " الرحمن على العرشِ استوى "[2] . " يدُ الله فوق أيديهم "[3] ،" ولتصنع على عيني "[4] . وغيرها، وكذلك ما يناظرها من الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة التي تصف الله تعالى على غرار ما هو موصوف في القرآن الكريم. ونحن من أجل إثبات كون مثل هذه الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسوله الله صلى الله عليه وسلم تخالف أوصاف غيره من المحدثات في غنى عن استقصاء مختلف آراء الطوائف الكلامية التي يشد كل منها بطرف في فهم مثل هذه النصوص إلاَّ للضرورة، لأنَّ من سبقنا أشبعها بحثاً واستقصاء[5] وما يهمنا بشكل أساسي هو بحث جوهر الإشكال الضروري طرحه: لماذا تترع بعض العقول إلى فهم مثل هذه النصوص فهماً تشبيهياً أو تجسيدياً ؟

---

(1) ــ الرحمن /25.

(2) ــ طه / 4 .

(3) ــ الفتح/ 10.

(4) ــ طه / 39.

(5) ــ للإطلاع في هذا المجال يرجع إلى : الشهر ستاني، الملـل والنحـل، ج1، وأبـو الحسـن الأشعري، مقالات الإسلاميين

1 ــ إن الطبيعة البشرية عموما نزاعة إلى كل ما هو محسوس ملموس ، واضح للعيان و العقول ، لإلفها الاتصال الحسي المباشر طول حياتها بالواقع المادي والفكري المعروف لديها لذلك يصعب على تلك العقول المحافظة على أفكار أو إعتقادات مجردة عن الحس ، خاصة إذا كانت تلك الأفكار أو الاعتقادات يؤمن بها. صاحبها إيمانا غير مؤسس على قناعة ويقين تامين يجعلان تلك الأفكار راسخة لا تزول إلاّ بزوال صاحبها المؤمن بها، يقول الزركشي (745-794هـ) عن ولوع النفس البشرية بالمحسوس :"... فإنَّ الأشخاص والأعيان أثبت في الأذهان، لاستعانة الذهن فيها بالحواس بخلاف المعاني المعقولة، فإنها مجردة عن الحس، لذلك دقت....." [1] . لذلك نجد في تاريخ الأديان واعتقادات الشعوب، خاصة الوثنية منها تجسيما للآلهة التي يؤمنون بها، والشبيهة في كثير من الأحيان لنوع من المخلوقات الموجودة في هذا، الكون فهي آلهة مجسدة مشبهة يقول عبد الكريم الخطيب(ت1992م) :" فإنَّ الآلهة المجسدة تقوم على جذور عميقة في النفس الإنسانية، وذلك أنَّ الإنسان مفطور على أن يلبس المعاني والأخيلة لباس الواقع المحسوس، كي يجد فيها واقعاً يعيش فيه ويتجاوب معه وأنَّه مهما حاول المرء أن يجعل الإله فكرة خالصة مجردة فلن يستطيع أن يحمل ذهنه على الإمساك بهذه الفكرة طويلاً، إنَّها سرعان ما تزدحم عليها الخواطر والصور المجسدة التي تحاول أن تزيحها عن مكانها أو تختلط بها في غير توافق[2] أو نظام "[1] وما هو طبيعي بالنسبة للإنسان النزاع إلى كل ما هو

---

[1] ــ الزركشي، البرهان في علوم القرآن ج1/ 488.(لبنـــان دار الأنـــدلس. د ت) ج1 ص 488.

[2] ــ هذا التصور لا ينطبق على إيمان المسلم بالله تعالى مادام إيمانه إيماناً صحيحاً يستشعر دائمـــاً قوله تعالى:" ليس كمثله شيئ" الشورى/9 .

محسوس هو أنّ طلبه للمحسوس يجب أن يكون من أجل الإطّلاع،|لأنّ ذلك غريزة متأصلة فيه| [2] . ومن أجل معرفة الحقيقة ليزداد إيماناً ويقيناً وأن يكون طلبه ذلك غير محظور أو ممتنع . ومثل هذه الحالة النفسية الطبيعية نجدها عند بعض الأنبياء والرسل وحواريهم، فقد سأل النبي إبراهيم عليه السلام الله تبارك وتعالى سؤال رجاء أن يجري أمام عينيه سريان صفة فعليه إلهية ليزداد بها إيماناً ويقيناً وهي صفة الإحياء بعد الموت :" وإذ قال إبراهيم ربِّ أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي" [3] . وكذلك طلب النبي موسى عليه السلام لرؤية الله تعالى:" ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربِّ أرني أنظر إليك قال لن تراني "[4] . وطلب حواريو عيسى من نبيهم أن يسأل الله إظهار آية إقتداره على كل شيئ: بإنزال مائدة طعام ليزدادوا إيماناً وتصديقاً:" إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزّل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين"[5] . لكن ماهو غير طبيعي، ويعد شذوذاً عن الفطرة السليمة، وتجاوزا لحدود الشرع والعقل أن يشبه الله تعالى بخلقه، أو يجسد في صورها، مثل هذا الإعتقاد الشاذ نجده عند بعض معتنقي الأديان السماوية السابقة للإسلام كاليهودية والمسيحية. وقد كشف عنها القرآن وبين شذوذها وبطلانها كقوله سبحانه على لسان بني

---

(1) ــ عبد الكريم الخطيب، الله ذاتا وموضوعا ط3 (دمشق: دار الفكـــر العـــربي 1983) ص 307

(2) ــ حلمي المليجي، علم النفس المعاصر ط2 (بيروت: دار النهضة العربية، 1972م) ص99.

(3) ــ ــ البقرة /259.

(4) ــ الأعراف /143.

(5) ــ المائدة /115.

إسرائيل:" وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم. قالوا يا موسى إجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون"[1] " واتخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا أنه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين"[2] . وبلغت بهم هذه الروح التشبيهية التجسيدية إلى أن يطلبوا من الرسول موسى عليه السلام أن يريهم الله بشكل محسوس ملموس:" فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم"[3] وكذلك اعتقاد النصارى أنَّ الله هو المسيح ابن مريم:" لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنَّه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار"[4] .

2- كما أنَّ المشبه قد يكون إعتقاده بالتشبيه ناتجا عن هشاشة إيمانه الذي لم يبن على أساس صحيح، الذي هو من قبيل إيمان العوام المبني على التقليد الأعمى، الأمر الذي يجعل إعتقاده الجديد عرضة لمؤثرات إعتقاده القديم.والإيمان المؤسس على التقليد الأعمى خطر على صاحبه في أيِّ دين سماوي، سواء من ناحية الإعتقاد بالتشبيه أو غيره. قال الشيخ أبو علي الجبائي(ت303هـ): " فأما التشبيه، فإنما كان سبب حدوثه(....) أنَّ قلوب العامة لا تسبق إلاَّ إلى تصوره، فلما تركوا النظر وركبوا طريقة التقليد، أدّاهم ذلك إلى ما قلنا،ولو نظروا بعقولهم لعلموا أنَّ، ما يجوز عليه الجمع والتفريق

---

[1] ـ الأعراف/138-139.

[2] ـ الأعراف/148.

[3] ـ النساء/152.

[4] ـ المائدة/74.

والتبديل والتغيير لا يكون إلاَّ محدثاً ولعلموا أنَّ محدث العالم إذا كان هو الأول، أنَّه لا يجوز أن يكون إلاَّ قديماً مخالفاً للأجسام والأعراض..." [1] .

3- كما لم يخل دين سماوي يدعو إلى توحيد الله تعالى وتنزيهه عن صفات المخلوقات من أعداءٍ يكنون له الحقد والعداء ويثيرون حوله الشبهات من خلال تتبع ما تشابه من نصوصه لبث الشك وتقويض أصل أصوله وهي عقيدة الألوهية، ومن هذه الشبه المثارة شبهة التشبيه كما قال تعالى مخبراً عن هؤلاء المشككين: "... فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلاَّ الله والراسخون في العلم يقولون ءامنا به كل من عند ربِّنا "[2] . ففي الديانة اليهودية إستطاع السامري بعد إغتنامه فرصة غياب موسى عليه السلام عن قومه أن يشرب في قلوب القوم العجل الإله ويصرفهم عن الله تعالى:"...فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى" [3] " ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإنَّ ربكم الرحمن فاتَّبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى..." [4] " قال فما خطبك يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي..." [5] وفي المسيحية[أفلح كتبة الأناجيل الأربعة في إفساد دين النبي عيسى عليه السلام الذي جاء بالتوحيد والتنزيه ليصبح دين تجسيد وحلول وتشبيه يقول بثلاثة بدل

---

[1] ــ عبد الجبار، فضل الإعتزال وطبقات المعتزلة. تح فؤاد سيد، ط2 (تونس/ الجزائر: الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب،1986) ص 149 .

[2] ــ آل عمران/7 .

[3] ــ طه/86 .

[4] ــ طه/90.

[5] ــ طه/ 94.

إله واحد بما أحدث في هذه الأناجيل من تحريف وتزييف][1] كما كان [بولس(ق1م)]اليهودي[2] المتأثر بالفلسفة اليونانية الأثر السلبي في تأصيل الوثنية اليونانية في المسيحية بما أدخله فيها من مصطلحات ومفاهيم غنوصية بعد تقلده رئاسة دينية في الكنيسة المسيحية، فهو الذي أطلق على المسيح بن مريم عليه السلام اسم : الرّب أو كيروس باليونانية(KYRIOS) الذي يعني:الإله المشخص عند اليونان ويقابله في الفرنسيةسينيور SEIGNEUR) [3]، وهو ما مهد لقرارات المجامع الكنسية فيما بعد حول طبيعة المسيح وتأصيل التثليث بدل التوحيد ." لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار "[4] " لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله ثالث ثلاثة وما من إله إلاّ إله واحد"[5]. وفي الإسلام، في أواخر عصر الخلافة الراشدة بشكل خاص حاول كثير ممن اعتنقوا الإسلام من الملل الأخرى، وأصحاب النحل المختلفة بث عقائدهم في أوساط المسلمين من أجل التشكيك في عقيدة الألوهية خصوصاً والإسلام عموماً بما أثاروه من أفكار التشبيه والتجسيم والحلول، يقول عبد

---

(1) ــ عبد الله الترجمان، تحفة الأريب في الرد على اهل الصليب(تونس: الدار التونسية للنشر1987) ص 24.

(2) ــ [اسمه اليهودي: شاول، من أسرة تنسب نفسها إلى سلالة سبط بنيامين، وأضيف إليه الإسم الروماني(بولس)حسب عادة يهود الشتات، كان قبل دخوله في المسيحية يهودياً من الفرقة الفريسية] عبد المجيد الشرفي، الفكر الإسلامي في الرّد على النصارى(تونس/ الجزائر: الدار التونسية والمؤسسة الوطنية للكتاب،1986) ص 49 .

(3) ــ المرجع نفسه، ص 52 .

(4) ــ المائدة/74

(5) ــ .المائدة/75.

المجيد النجار: " لما انتشر الإسلام واحتوى أهل الديانات والمذاهب الفلسفية وغلب عليهم، واشتد اختلاط هؤلاء بالمسلمين منذ القرن الأول، جعل بعض أصحاب تلك الأديان والمذاهب ينشطون في مقاومة العقيدة الإسلامية بالفكر بعدما عجزوا عن مقاومة أهلها بالسيف، فعمدوا إلى محاولة طمس حقائقها وإحلال عقائدهم محلها،واستعملوا في ذلك طرقا مختلفة تناسب نوعية المخاطبين، فالعامة خوطبوا في ذلك بالأخبار والقصص، وأهل العلم خوطبوا بالجدل والحجة العقلية، وقد استغلوا جو التسامح الديني والحرية الفكرية الذي كان سائداً في المجتمع الإسلامي ليكثفوا من نشاطهم في بث مقالاتهم المناقضة للعقيدة الإسلامية. فقد كان اليهود يقذفون بالأخبار والأحاديث التي تفيد التجسيم والتشبيه على الأخص(...) وكانت من نتائجه ما يعرف في الثقافة الإسلامية بالإسرائليات"[1] وهذه الحملة العدائية العقدية التي شنت ضد المسلمين وعقيدتهم هي السبب في ظهور جماعات دينية مبتدعة في العقيدة أفحشت في التشبيه والتجسيم أمثال الهشامية نسبة إلى زعيمها الشعي المغالي: هشام بن الحكم(ت198هـ-814م) الذي كان من إعتقاداته السخيفة في الله تعالى [أن بينه وبين الاجسام تشابها ما بوجه من الوجوه] [2] وكذلك جماعة الحشوية من الحديث الذين يتتبعون حتى الأخبار الموضوعة فوقعوا في التشبيه والتجسيم أيضا كما في إعتقادهم في الله تبارك وتعالى[أنه يجوز عليه المصافحة و المعانقة في الدنيا والآخرة] [3] . قال الشهرستاني عنهم(ت548هـ):" وزادوا في الأخبار

---

[1] ـ عبد المجيد النجار، وعلي الشابي، وأبو لبابة حسن، المعتزلة بين الفكر والعمل(تونس: الشركة التونسية للتوزيع،1989) ص ص 14-15 .

[2] ـ الشهرستاني، الملل والنحل، مصدر سابق، ج1ص 184.

[3] ـ المصدر نفسه /ص 105.

أكاذيب وضعوها ونسبوها إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وأكثرها مقتبسة من اليهود ، فإن التشبيه فيهم طباع..." [1] . وكذلك جماعة الكرامية نسبة إلى زعيمها محمد بن كرام (ت255هـ) [الذي يثبت الصفات الإلهية لكن ينتهي بها إلى التشبيه والتجسيم]،[2] قال عنه عبد القاهر البغدادي (ت429هـ):((إن ابن كرام دعا أتباعه إلى تجسيم معبوده وزعم أنه جسم له حدّ ونهاية من تحته والجهة التي يلاقي عرشه، وهذا شبيه بقول الثنوية : أنّ معبودهم الذي سموه نوراً يتناهى من الجهة التي يلاقي الظلام وإن لم يتناهى من خمس جهات، وقد وصف ابن كرام معبوده في بعض كتبه بأنه جوهر كما زعمت النصارى أن الله تعالى جوهر)) [3] .فالتشبيه والتجسيم والحلول، وكل ما لا يليق بالله تعالى يتبرأ منه كل مسلم سليم العقيدة ولا يقول به إلاّ من كان خلاف ذلك، لأنه كان من مصدر غير إسلامي كاليهودية والنصرانية المحرفة و المجوسية والثانوية وغيرها خاصة فتنة الوضع التي حمل لواءها اليهود وهو ما أدى إلى قيام علم إسلامي جليل هو علم مصطلح الحديث. فالمسألة إذن لم تكن إسلامية المنشأ، كما أن فتنتها لم تصب هدفها كما أريد لها وهي تقويض عقيدة الألوهية في الإسلام، وتحويلها من عقيدة التوحيد والتنزيه إلى عقيدة التشبيه والتجسيد والحلول كما فعل بعقيدة النصارى، وانحصر تأثيرها في إثارة مسألة آيات الصفات المتشابهة بين علماء العقيدة المسلمين: هل تؤول خلاف ظاهرها أم تبقى كذلك دون تأويل ؟ مع اتفاقهم جميعاً على أنها منزهة لله تعالى عما لا يليق به. لأن القرآن صريح في إثبات تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، نجد ذلك

---

[1] ــ المصدر نفسه /ص 106.

[2] ــ المصدر نفسه / 108.

[3] ــ عبد القادر البغدادي، الفرق بين الفرق(بيروت: دار الكتب العلمية،1985) ص 131.

في أكثر من آية مثل قوله تعالى:" ليس كمثله شيء"[1] " لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح بن مريم"[2] . " لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلاّ إله واحد "[3] ." سبحان الله عما يصفون"[4] ."سبحان الله وتعالى عما يشركون"[5] " سبحان ربك ربِّ العزة عما يصفون[6] "قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفؤا أحد"[7] . وكان الاختلاف بين بعض علماء العقيدة الإسلامية حول منهج إثبات ذلك التنزيه، أو كيفية التعامل مع النصوص لتوضيح ذلك التنزيه.وهذا الاختلاف لم يكن أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أسلفنا، و لم تكن سنته التي تصف الله تعالى مثار جدل واختلاف بين المسلمين، ومهما كان هناك من أحاديث يتوهم منها البعض التشبيه فيجب أن تكون دائما تابعة للتنزيه الذي صرح به القرآن وأثبته، وأن أي معنى يفهمه فاهم أو يؤوله مؤول لا يليق بالتنزيه المؤصل في القرآن فهو فهم وتأويل شاذ يجب وضعه في قفص الاتهام لأن:

1- كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا يناقض أبدا كلام الله تعالى، ومن ادعى ذلك فقد نقض النبوة المصرح بها في القرآن:" هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله"[8]. ولو كان الرسول مناقضا لكلام

---

(1) ــ الشورى /9.

(2) ــ المائدة /74.

(3) ــ المائدة /75.

(4) ــ الصافات / 159.

(5) ــ القصص /68.

(6) ــ الصافات /180

(7) ــ سورة الإخلاص.

(8) ــ الصف/9.

الله بحديثه لما أمره بالتبليغ وأمرنا نحن باتباعه:" فآمنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يومن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون"[1]

2- كلامه وحي من الله معصوم فلا ينطق أثناء وصفه لله بصفات تناقض ما وصف الله به نفسه في القرآن :" وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى علمه شديد القوى"[2].

3- السنة النبوية مبينة وموضحة لما في القرآن لذلك أمرنا بالأخذ بها:" وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا"[3] .ولو كان فيها ما يسيء للتنزيه لما كان هذا الأمر من الله، وإذا كان فيها ما يناقض التنزيه المصرح به في القرآن فهو مفترى على السنة ولا يلزمنا اعتباره بل يلزمنا التبرؤ منه. وقد وضع علماء الحديث كثيرا من الأحاديث المحسوبة على السنة في وصف الله تبارك وتعالى ، وعلى سبيل المثال لا الحصر وضعوا حديث " إنَّ الله عز وجل ينزل في كل ليلة جمعة إلى دار الدنيا في ستمائة ألف ملك فيجلس على كرسي من نور وبين يديه لوح من ياقوتة حمراء فيه أسماء من يثبت الرؤية والكيفية والصورة من امة محمد فيباهي بهم الملائكة..." [4]. وحديث:" رأيت ربي في المنام في أحسن صورة شابا موفراً رجلاه في خضرة له نعلان من ذهب على وجهه فراش من ذهب"[5] . وحديث:" إنتهيت إلى ربي ليلة أسريَ بي إلى السماء، فرأيت ربي،

---

[1] ــ الأعراف/158.

[2] ــ النجم/3-5.

[3] ــ الحشر/7.

[4] ــ جلال الدين السيوطي، اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة(بيروت: دار المعرفة، 1983)ج1 ص ص26-27.

[5] ــ المصدر نفسه ص ص 28 – 29 .

بيني وبينه حجاب بارز، فرأيت كل شيء منه، حتى رأيت تاجاً مخوصاً من اللؤلؤ "[1]. فالإختلاف إذن ليس مرده إلى النص بل مرده إلى المتآمرين على الإسلام وأهله بما أثاروه من شبه حول النصوص المتشابهة التي لا تقتضي من المسلم الصحيح الإسلام إثارة الجدل حولها والجري وراء حقيقتها وكيفيتها، الأمر الذي أدى ببعض علماء العقيدة إلى الاضطرار إلى التأويل درءا لتلك الشبه المثارة وسدا لباب الطعن والتشكيك في العقيدة، لذلك ظهر التأويل كمنهج جديد في الدفاع عن العقيدة الإسلامية خاصة عقيدة الألوهية، حمل لواءه كثير من علماء العقيدة الإسلامية من السلف والخلف الذين سنتعرف إلى بعضهم عما قليل، لكن التأويل المقصود هو التأويل المحمود القريب من النص النقلي والبرهان العقلي الموافق للبرهان النقلي، لا تأويل الفرق الضالة التي تنسب نفسها إلى الإسلام، فقد ظهر رجال ابتداء من القرن الأول الهجري يتبنون الإسلام ظاهراً ويخفون أفكارهم المناوئة للإسلام باطناً والذين كان لهم الأثر الكبير في تفريق المسلمين إلى فرق شتى هي الفرق الضالة المعروفة في تاريخ الفكر الإسلامي.فيذكر لنا العلامة المقريزي(ت1441م) نموذجا من هؤلاء وهم: الجهم بن صفوان(ت128هـ) مؤسس فرقة الجهمية [2] :"فأورد على أهل الإسلام شكوكاً أثرت في الملة الإسلامية آثاراً قبيحة تولد عنها بلاء كبير، فكثر أتباعه على أقواله التي تؤول إلى التعطيل"[3]. فمن معتقداته في صفات الله

---

[1] ـ الشوكاني ، الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص / 441 .

[2] ـ ينظر أصولها في مقالات الاسلاميين للأشعري،312/1.

[3] ـ مقدمة مقالات الإسلاميين ، مصدر سابق نقلا عن المقريزي الخطط والآثار، ج2 ص 357.

مثلا أن:[لمعلومات الله ومقدوراته غاية ونهاية] [1].[2] [كما كان لمعبد الجهني(ت80هـ)الذي يعد أول من انتحل القول بالقدر، وعبد الله بن سبأ(ق الأول الهجري) المعروف:بابن السوداء الذي كان له الأثر في ظهور كثير من الفرق الغالية والضالة نتيجة لما بثوه من سموم في رجالها] [3]. الذين أصبحوا يعتمدون التأويل[4]. الباطل في تأصيل مذاهبهم الضالة فانبرى علماء العقيدة الإسلامية برد تأويل أولئك بتأويل يرونه أسلم وأحكم لنقض دعاوى وشبه الضالين والمشككين فكان من علماء المعتزلة المخلصين للإسلام الرد على غلاة الشيعة ومارقة الخوارج، وشبه الزنادقة والدهرية، وسائر الملل والنحل بتأويل النصوص النقلية إلى جانب البراهين العقلية فكان [أبو الهذيل العلاف (ت235هـ) مثلا كثير المناظرة والجدل للزنادقة، والشكاك، والمجوس، والثنوية إلى حد أنه أسلم على يديه أكثر من ثلاثة آلاف رجل] [5]. فقد أول نصوص رؤية الله تعالى يوم القيامة[بالرؤية القلبية أي لعلم القلبي لا الرؤية الحسية] [6]. وذلك تنزيها لله تعالى عن الجسمية التي يعتقد بها المجسمة. وكان هذا منهج المدرسة العقلية الإعتزالية بجميع رجالها وطبقاتها التي يمثل أبو الهذيل

---

[1] ـ [أغلب ما عليه أهل الإسلام في هذه المسألة أنه ليس لمعلومات الله ولا لمقدوراته كل(نهاية) ولا غاية]الأشعري، مقالات الإسلاميين ، مصدر سابق، ج1ص224

[2] ـ المصدر نفسه ص ص 224.

[3] ـ المصدر نفسه ص ص 10-11.

[4] ـ يرى الشيخ جمال الدين القاسمي السلفي المعاصر:[أن الجهمية هي اول فئة سابقة في التأويل في الإسلام]، علي سامي النشار وعمار الطالبي، عقائد السلف(الإسكندرية: منشآة المعارف1971)، نقلا عن ، القاسمي ، كتاب تاريخ الجهمية والمعتزلة، المجلد6/ص ص 44-45

7 ـ محمد محي الدين عبد الحميد، مقدمة مقالات الإسلاميين. مصدر سابق، ص 21.

[6] - الأشعري، مقالات الإسلاميين مصدر سابق، ص ،ج1، ص 238.

العلاف(ت235هـ) أبرز وأشهر علمائها.وكذلك سلكت هذا المنهج المدرسة الأشعرية بجميع رجالها وطبقاتها في الدفاع عن العقيدة الإسلامية عموماً وعقيدة الألوهية خصوصاً. وإلى جانب هذا المنهج هناك منهج آخر يتبناه رجال السلف في تأصيل العقيدة الإسلامية وتوضيحها، منهج لا يستخدم التأويل في آيات الصفات المتشابهة لمبررات يرونها أليق بالعقيدة وأدعى إلى التأدب مع الله وكتابه الكريم، |أي عدم التعرض لتأويل كيفيات الصفات التي استأثر الله بعلمها والتي تدخل تحت قوله تعالى:" وما يعلم تأويله إلا الله[1] . ولا ينكرون التأويل الذي يراد به التفسير المبين لمراد الله في الصفات أو غيرها، إنما ينكرون على من يتأول ما تشابه من الآيات تأويلاً باطلاً كما فعلت الجهمية، فهو تأويل محرف مبتدع، لأن الذين يتأولونه، يتأولونه على غير تأويله الصحيح، وبغير دليل يوجب ذلك | [2]. من مثل هذه الكيفيات التي لا يتعرض لها السلف بالتأويل ويرجعون معناها إلى الله تعالى وحده إعتمادا على قوله تعالى :" وما يعلم تأويله إلاّ الله... "[3]. كيفية الإستواء كما في قوله تعالى :" .. الرحمن على العرش استوى.."[4]. فقد سئل الإمام مالك (ت179هـ) عن قوله تعالى:" الرحمن على العرش

---

1 ـ آل عمران/7 .

(2) ـ ابن تيمية ، الرسالة التدمرية في التوحيد والأسماء والصفات(باتنة: دار الشهاب.دت) ص ص50-51 .

وللإطلاع على معاني التأويا وأنواعه ينظر ابن تيمية: الرسالة التدمرية. المصدر نفسه صص 42-44

(3) ـ آل عمران/7

(4) ـ طه/4.

5 ـ ابن تيمية، الرسالة التدمرية المصدر نفسه، ص 45.

6 ـ يستثني منهم دائما الذين شذوا عما أجمع عليه المسلمون وغير المخلصين للعقيدة الإسلامية وإن إدعوا أنهم سلفيون أو خلفيون أو تابعوهم وإن علوا أو دنوا.

استوى " ؟ فقال : الإستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. وعن نفس السؤال أجاب شيخ الإمام مالك ربيعة الرأي (ت135هـ) :الإستواء معلوم والكيف مجهول ومن الله البيان وعلى الرسول البلاغ، وعلينا الإيمان" لان علماء العقيدة الإسلامية، سلفاً وخلفاً .يشتركون في منهج واحد هو التأويل، بمعنى التفسير والتبيين، وإبراز المعنى الحقيقي للنص العقدي. ويبقى الإختلاف فقط في تأويل بعض الصفات الخبرية التي يرى السلف: أنّ محاولة تأويلها يؤدي إلى تكييفها (لتأويل الإستواء بالإستلاء مثلاً) ومن ثم وجب تفويض كيفياتها، أو معناها الحقيقي إلى الله وحده . بينما يرى بعض علماء العقيدة الإسلامية ضرورة تأويلها وإثبات معنى لها(مع تبرير ذلك نصاً وعقلاً ولغة) غير المعنى الباطل الذي يتمسك به أعداء العقيدة الإسلامية بغية ضرب العقيدة في صميمها وهي الألوهية، فكان ذلك التاويل منهم رداً لتأويل باطل أو درءا لإعتقاد أهل الزيغ والضلال، وسداً لباب الطعن في العقيدة. و لم يكن تأويلهم لتلك الآيات الخبرية بتأويل يرونه مناسباً وحكيماً محض اختيار منهم أملاه الترف العقلي أو التعالم على القرآن والسنة، أوحب الإبتداع في توضيح العقيدة.

وربما لمس الإمام السيوطي (849-911هـ) مبررات التأويل في بعض الأحيان، فلم يعارضه مع جعل التفويض أولى إذا لم يكن هناك داعٍ إلى التأويل، فقال في شعر له :

فوض أحاديث الصفات *** ولا تشبه أو تعطـــل

إن رمت إلاّ الخوض في *** تحـــقيق معضلة فـــأول

إن المفوض سالم *** ممـــا يكلفـــه المـــؤول[1] .

إن طريق تفويض الصفات الخبرية المختلف فيها بين علماء العقيدة يبقى الطريق الأسلم للمسلم الذي أخلص إسلامه لله، خاصة إذا لم يضطر إلى التأويل كما إضطر إليه أسلافنا من علماء العقيدة. كما لا يجب أن نجعل نقطة الإختلاف تلك بين علماء العقيدة الإسلامية (تأويل أو تفويض الصفة الخبرية المختلف في معناها المراد) نقطة إختلاف جوهرية بل يجب عدّها شكلية مادام علماؤنا متفقون على مايلي :

1- الإختلاف المطلق بين صفات الله تعالى وصفات الإنسان: هناك صفات لله تعالى في القرآن:كالسمع، والبصر، والكلام، والعلم والقدرة..الخ يوصف بها الإنسان، وحتى غيره من المخلوقات الأخرى فما وجه العلاقة بينهما ؟ ولما كان الإنسان هو المخلوق المفضل والمكرم على كثيرمن مخلوقات الله بما انعم الله عليه من نعم شتى :" ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً "[2]. وتشريفه بالعقل والرسالة،باعتباره مخاطباً من الله سبحانه عن طريق الانبياء والرسل فإننا نخصصه بالسؤال السابق؟ فالإنسان موصوف بالسمع، والبصر، والكلام، والعلم والقدرة..الخ فما حقيقة هذه الصفات التي يتصف بها بالنسبة

---

[1] ــ السيوطي، تأويل الاحاديث الموهمة للتشبيه، ضبط وتعليق البسيوني مصطفى ابراهيم الكرمي(جدة: دارالشرق1979) ص 95.

[2] ــ الإسراء /70.

لصفات الله تعالى ؟ الإجابة نعرفها بمجرد معرفة الطبيعة الخلقية للإنسان فما هي هذه الطبيعة ؟ إنَّ طبيعة الإنسان كما وضحها القرآن الكريم ثم أكدها العلم الحديث طبيعة مزدوجة مكونة من حقيقيين : احداهما : مادية أرضية تشتمل على كثير من العناصر العضوية الموجودة في الطبيعة. قال تعالى:" وبدأ خلق الإنسان من طين"[1]. " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين"[2] .

وهذا ما أثبته العلم التجريبي من كون جسم الإنسان مركب من عناصر كيميائية من أصل ترابي، كالكالسيوم، والفوسفور، والبوتاسيوم، والكبريت، والحديد، والصوديوم، والنحاس وغيرها من العناصر الموجودة في التراب. والاخرى : روحية هي نفخة من روح الله تعالى كما جاء في القرآن :" ثم سواه ونفخ فيه من روحه...." [3]. والتركيب الحاصل بين الطبيعتين المادية و الروحية في الإنسان نتج عنه مجموعة من الغرائز والصفات يرجع بعضها إلى الطبيعة المادية، ويرجع بعضها الآخر إلى الطبيعة الروحية، يقول الكسيس كارل عالم الفيزيولوجيا الأمريكيت(ت1873 هـ1944م) :" إن أجسامنا مصنوعة من نفس العناصر التي صنعت منها الأشياء المجردة من الحياة. ومن ثم يجب ألاّ تستولي الدهشة علينا، مثل علماء الفسيولوجيا العصرية، عندما نجد القوانين العادية للطبيعة والكيمياء تؤدي عملها بداخل أجسامها مثلما توجد في العالم الكوني.ولما كنا أجزاء من العالم المادي، فإن إختفاء هذه القوانين أمر لا يصح

---

(1) ـ السجدة /6.

(2) ـ المؤمنون/12.

(3) ـ السجدة /8.

التفكير فيه"[1]. ويقول في موضع آخر :|إنَّ الإنسان كل لا يتجزأ شديد التعقيد(.....) إنه في آن واحد الجثة التي يفحصها علماء التشريح، والشعور الذي يراقبه علماء النفس، وأساتذة الحياة الروحية(...) إنه ليس فقط الكائن المعقد أشد التعقيد الذي يحله العلماء بوسائلهم الفنية الخاصة بل هو أيضاً جماع ميول البشر وتمنياتهم ورغباتهم| [2]. فالجانب المادي من الإنسان تتولد عنه مجموعة من الدوافع والغرائز[3]. البيولوجية، كدافع التناسل، والتغذي، وحماية النفس، ودافع التملك.... وما ينتج عن هذه الدوافع والغرائز من صفات مزاجية وأخلاقية وانفعالية. هذه الصفات البشرية ذات الأصل الترابي المادي هي أبعد ما يكون عن أية صفة من صفات الله تعالى، لأن الله نفى أن يكون مشابها لشيئ من الأشياء :" ليس كمثله شيء "[4].

ولأنه فصل نفي هذا التشابه الذي قد يدعى في كثير من المواضع من القرآن. فقال على سبيل المثال نافياً عن نفسه ما يصبو إليه البشر من اتخاذ الصاحبة والولد :" . سبحانه وتعالى عما يصفون، بديع السماوات والارض أنى يكون له ولد، و لم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ذلكم الله ربكم لا إله إلاّ هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل"[5].

---

(1) ــ الكسيس كاريل الإنسان ذلك المجهول. تعريب شفيق أسعد فريد، (بيروت: مكتبة المعارف 1987م) صص 106- 107.

(2) ــ المرجع نفسه ص ص16-17.

(3) ــ الغريزة عند العالم النفساني(مكدوغل) هي: استعداد نفسي عضوي،فطري كان أو موروثا. مقداد يالجن ويوسف مصطفى القاضي، علم النفس التربوي في الإسلام(الرياض: دار المريخ، 1981م) ص31 في الهامش.

(4) ــ الشورى /9.

(5) ــ الانعام/101-103.

أما النفخة الروحية الإلهية التي تكونت منها روح الإنسان فقد [أعطت للإنسان دوافع وصفات ذات طابع روحي، كدافع التقديس، والدافع الأخلاقي الخيّر، ودافع حب الاستطلاع وإدراك الحقائق] [1]. وما يتفرع عن هذه الدوافع من صفات كالإيمان، والرحمة، والصبر، والعلم، والحياة، والإرادة وغيرها. وهذا النوع من الصفات لا تضاهي ولا تشبه نظيراتها عند الله تعالى إنما هي فقط [فيوضات من تلك الروح الإلهية التي كانت الطبيعة البشرية في تكوينها لا تخلو منها، فهي قسط يسير جدا من تلك التي يوصف بها الله تعالى. وقولنا إنها قسط يسير منها لا يعني أبداً أنها تشبهها في أي وجه من الوجوه إلاّ في التسمية فقط، لأن الضرورة اللّغوية[2] اقتضت ذلك و إلاّ لما تشابهتا حتى في التسمية، لأن ذات الله تعالى وصفاته وأسمائه أجل وأعظم من أن تقارن أو تتفق مع ذات وصفات وأسماء غيره] [3].

2- اللّغة إعتبارية لا حقيقية :

وصف الله سبحانه نفسه بصفات بواسطة لغة القوم المخاطبين فعبر مثلاً عن إحاطته بالمسموعات بما نسب إليه من صفة السمع، وبإحاطته بالمرئيات بما نسب إليه من صفة الإبصار وغير ذلك، فلماذا كانت هذه المعاني مُعبرا عنها بألفاظ يستخدمها البشر في نعت صفاتهم وصفات غيرهم من الحوادث ؟ إن لغة القرآن في آيات الصفات أو غيرها هي لغة القوم الذين خوطبوا بهذا القرآن.

---

[1] ــ يوسف مصطفى القاضي و مقداد يالجن، علم النفس التربوي في الإسلام. مرجع سابق، ص 37.

[2] ــ سأتحدث عن هذه الضرورة عما قريب.

[3] ــ محمد سعيد رمضان البوطي ، كبرى اليقينيات الكونية.(الجزائر/ دمشق: دار الملكية ودار الفكر، 1982)، ص 118.

وحتى تكون صفات الله تعالى أقرب وأوضح إلى الفهم والإيمان كان يجب أن تكون مشاراً إليها بألفاظ معروفة لدى المخاطبين والمتواضع عليها في لغتهم، ولها صلة بما ألفه القوم من الأشياء الحسية. وخلاف ذلك سنجد عقيدة الألوهية أبعد عن الإدراك والوعي والتصديق لو كانت موصوفة بصفات موغلة في التجريد هي أعلى ما يكون عن طاقة العقل البشري وقدراته وأبعد ما تكون عما تواضع عليه البشر من لغة. وتحقيقاً لغاية إدراك عقيدة الألوهية كانت الرسل ترسل بألسنة أقوامها، كما قال تعالى:" وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم" [1].

|أي ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا لم نفهم ما خوطبنا به| [2]. وكما قال سبحانه أيضا:" ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لو لا فصلت آياته "[3]. والكلام الاعجم هو|الكلام غير المفصح وغير المبين| [4]. والله سبحانه لا يخاطب عباده إلاّ بلغة يفهمونها ولو خاطبهم بلغة هي فوق قدرهم، و لم يتواضعوا عليها لما فهموا عنه كلامه، فيكون خطاب الله تعالى للإنسان بلغته(كما هو الحال في وصف ذاته سبحانه) ليس دليلاً على أن ذاته تعالى وصفاته هي ما هي عليه الأشياء الحسية التي وضعت لها ألفاظ لغوية كأداة البطش عند الإنسان التي وضع لها لفظ اليد أو أداة الإبصار التي وضع لها لفظ العين وغيرها، فاللّغة إعتبارية إصطلاحية لا حقيقية والدليل على ذلك إختلاف اللّغات من أمة إلى أخرى ومن قوم إلى آخر. ولما كانت اللّغة لها

---

[1] ــ ابراهيم/5.

[2] ــ الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق،ج2 ص 366.

[3] ــ فصلت / 43.

[4] ــ أبو بكر الرازي، مختار الصحاح . مصدر سابق ص 157.

صلة وثيقة بالواقع الحسي للإنسان، أو هي بالأحرى تعبير عن محسوسات الإنسان فإنها تعجز عن الإحاطة وتقريب المُعنى الصحيح لبعض الأفكار والتصورات التي لا تمت إلى واقع الإنسان بصلة، ولا تعطيه من المعنى إلاّ ما هو مرتبط بشيئ حسي ألفه الإنسان ووضع له لفظا خاصا به يعبر عن معنى من المعاني. فقوله سبحانه وتعالى مثلاً :" قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها [1]. فإن السامع الجاهل بحقيقة اللّغة يتبادر إلى ذهنه بمجرد سماع هذه الآية أن السمع لا يكون إلا بأداة حسية كالأذن عند الإنسان مثلاً، فيعتقد على أساس هذا التصور بالتشبيه أو التجسيم. لكن العالم بحقيقة اللّغة المدرك بكون اللّغة إعتبارية لا حقيقية، وأن الله لا يخاطب الإنسان إلاّ بلغته التي يفقهها ويفقه بها المعاني المختلفة يقف على حقيقة هي : أن مثل هذه النصوص تتحدث عما هو غائب عن الإدراك الحسي، وإنما نعت بلغتنا من أجل أن نفهم نحن. فلا يصح منطقيا أن نجعل اللّفظ اللغوي المشترك بين موجود مدرك حسياً وبين غائب غير مدرك حسياً داعياً ومبرراً للتشابه بينهما في الماهية أو الحقيقة. وإنما الصحيح أن وجه التشابه هو اللفظ اللغوي فقط.

وفي هذا الإطار يقول الشيخ ابن تيمية (ت728هـ) :" والإخبار عن الغائب لا يفهم إن لم يعبر عنه بالأسماء المعلومة معانيها في الشاهد، ويعلم بها ما في الغائب بواسطة العلم بما في الشاهد، مع العلم بالفارق المميز، وأنّ ما اخبر الله به من الغيب أعظم مما يعلم في الشاهد وفي الغائب، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر(...) لا يعلمه إلاّ الله " [2]. ويقول الشيخ الشعراوي :" عندما يذكر لنا القرآن المجيد أشياء ليس لها وجود مسبق في

---

[1] ـ المجادلة /1.

[2] ـ ابن تيمية، الرسالة التدمرية، مصدر سابق صص 44-45.

عقولنا نراه يعطينا مجرد تقريب لهذه الأشياء حتى يتسنى لنا فهمها، وذلك بأن يمنح هذه الأشياء بعض المعنى(...) فرغم أنّ الله يعطينا صورة للفردوس إلاّ أنه لا يعطينا حقيقته إذ أنّ حقيقة الفردوس ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقد وضعت اللغات في الواقع إستناداً إلى كل ماهو مرئي محسوس(.....)والله عندما يخبرنا عن الفردوس تراه يخبرنا بلغة أولئك الذين يخاطبهم، في كلمات وضعوها عند إشاراتهم إلى تصوراتهم العقلية لما قد يوجد في الفردوس"[1] . نصل من خلال ما سبق إلا أن صفات الله تعالى في القرآن أو الحديث النبوي التي توهم البعض بالتشبيه أو التجسيم، هي مجرد ألفاظ لغوية دالة على معاني حسنى يجب الإعتقاد بها وتلك الألفاظ تؤدي وظيفة التبليغ والإعلام، لأن اللغة وسيلة تفاهم وإتصال، ولا يقابل تلك الصفات المعبر عنها بألفاظ لغوية شيء من واقع الإنسان كالوجه واليدين على غرار ما يعتقد في صفات الأشياء المحدثة التي تعبر بالفعل عن حقيقة تلك الاشياء كما هي عليه في الواقع الحسي كقولنا:" وجه الإنسان " الذي يدل على الجهة الأمامية من رأس الإنسان والذي يحمل مجموعة من الحواس والجوارح. ومثله : يد الإنسان وعينه، ونفسه وغيرها، التي هي صفات لفظية دالة على ما يطابقها في الواقع بالفعل.فصفات الله مناظرة لغوياً لبعض صفات البشر لكنها ليست لها ما يقابلها في واقع البشر أو سائر المحدثات من صفات معروفة عندهم، كالهيئة التي عليها أنواع الوجوه أو أنواع الأيدي أو كيفيات الإستواء المرتبطة بالأشياء الحسية التي نستوي عليها.

---

[1] ــ محمد متولي الشعراوي، اثبات وجود الله ووحدانيته، (باتنة: شركة الشهاب، 1989م)،ص40.

3- عدم تكييف الصفات :

علماء العقيدة الإسلامية يتفقون على عدم تكييف صفات الله تعالى، حتى المؤولين للصفات الخبرية منهم لم يدعوا أن تأويلهم هو الكيف الحقيقي لصفة من الصفات، فحينما يؤول بعضهم مثلاً صفة الإستواء بالإستلاء فإنه في الحقيقة لا يعده تكييفاً بل تفسيراً وتبييناً إستناداً إلى مبرر لغوي، لأن من معاني الإستواء في لغة العرب: |الإستلاء، كما قال الشاعر قد استوى بشر على العراق- من غير سيف ودم مهراق. واستوى الرجل أي إنتهى شبابه| [1]. فالسلف مثلاً حينما أثبتوا ما أثبت الله لنفسه من الصفات الخبرية كما وردت في القرآن إتهمهم البعض من المتكلمين في العقيدة كبشر بن غياث المريسي(+218 هـ) الجهمي |بتكييف صفات الله تعالى مع أن القرآن لم يكيفها، لأنه نفى أن يكون مثل الله شيء| [2]. فرد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد (+280هـ) على المريسي وأتباعه مكذباً إدعاءهم ونافياً لتهمهم قائلاً:" أما قولك : إن كيفية هذه الصفات وتشبيهها بما هو موجود في الخلق خطأ، فإنا لا نقول: إنه خطأ بل هو عندنا كفر ونحن لتكييفها وتشبيهها بما هو موجود في الخلق أشد أنفاً منكم، غير أنا كما لا نشبهها ولا نكفيها لا نكفر بها، ولا نكذب، ولا نبطلها بتأويل الضلال (...) وأما ما ذكرت من إجتهاد الرأي في تكييف صفات الله، فإنا لا نجيز إجتهاد الرأي في كثير من الفرائض والأحكام التي نراها بأعيننا وتسمع بآذاننا، فكيف في صفات الله التي لم ترها العيون، وقصرت عندها الظنون(...) فكما نحن لا نكيف هذه الصفات لا نكذب بها كتكذيبكم، ولا

---

[1] ـ أبو بكر الرازي، مختار الصحاح مصدر سابق، ص 136.

[2] ـ علي سامي النشار وعمار جمعي الطالبي، عقائد السلف . مرجع سابق، ص ص 380-381.

نفسرها كتفسيركم " [1]. كما أن علماء العقيدة الأشاعرة رغم [تأويلهم للصفات الخبرية، كالوجه، واليدين ... وغيرهما (إيماناً منهم بأن للراسخين في العلم حظ في تأويل المتشابه تمييزاً عن الجهال) فإنهم لا يدعون أن تأويلهم ذلك هو الكيف الحقيقي لها. فالأشعري مثلاً إضافة إلى كونه لا يقول بأن الإستواء إستلاء وإنما هو فعل خاص يفعله البارئ بالعرش فإن هذا الفعل الإلهي الخاص لا يمكن تكييفه] [2]. وعدم إدراك كيفية الصفات حقيقة تؤيدها بعض المعطيات منها :

أ–عدم معرفة وإدراك كيفية الذات يؤدي إلى جهل كيفية الصفات :

فيرى ابن تيمية أن [معرفة كيفية الصفة متوقفة على معرفة كيفية الذات، لأن الصفات تختلف بإختلاف موصوفاتها. فصفات المخلوقات تختلف بإختلاف ذواتها فما بالنا بصفات الله تعالى التي لا نستطيع الإحاطة بذاته] [3].

ب– محدودية قدرة العقل :إن العقل لا يستطيع أن يدرك شيئاً إلا بعد أن يحصره بين شيئين إثنين : الزمان والمكان . ومن ثم كانت المسائل الخارجة عنها مستعصية عن إدراك كنهها كذات الله تعالى وصفاته. فشهادة العقل على كيفية عالم الغيب غير شهادته على كيفية عالم الحس، فهو أبعد عن الحقيقة في العالم الأول، لأنه لا يستند في الحكم عليه إلا قياساً على ماهو موجود في العالم الثاني.

---

[1] ــ المرجع نفسه صص 380-381.

[2] ــ جلال محمد عبد الحميد موسى، نشأة الأشعري وتطورها. (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982م)،ص289.

[3] ــ ابن تيمية، الفتاوي المجلد السادس، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم (الرباط: المكتب التعليمي د ت) ج2 ص 399.

نفسرها كتفسيركم " [1]. كما أن علماء العقيدة الأشاعرة رغم [تأويلهم للصفات الخبرية، كالوجه، واليدين ... وغيرهما (إيماناً منهم بأن للراسخين في العلم حظ في تأويل المتشابه تمييزاً عن الجهال) فإنهم لا يدعون أن تأويلهم ذلك هو الكيف الحقيقي لها. فالأشعري مثلاً إضافة إلى كونه لا يقول بأن الإستواء إستلاء وإنما هو فعل خاص يفعله البارئ بالعرش فإن هذا الفعل الإلهي الخاص لا يمكن تكييفه] [2]. وعدم إدراك كيفية الصفات حقيقة تؤيدها بعض المعطيات منها :

أ–عدم معرفة وإدراك كيفية الذات يؤدي إلى جهل كيفية الصفات : فيرى ابن تيمية أن [معرفة كيفية الصفة متوقفة على معرفة كيفية الذات، لأن الصفات تختلف بإختلاف موصوفاتها. فصفات المخلوقات تختلف بإختلاف ذواتها فما بالنا بصفات الله تعالى التي لا نستطيع الإحاطة بذاته] [3].

ب– محدودية قدرة العقل :إن العقل لا يستطيع أن يدرك شيئاً إلا بعد أن يحصره بين شيئين إثنين : الزمان والمكان . ومن ثم كانت المسائل الخارجة عنها مستعصية عن إدراك كنهها كذات الله تعالى وصفاته. فشهادة العقل على كيفية عالم الغيب غير شهادته على كيفية عالم الحس، فهو أبعد عن الحقيقة في العالم الأول، لأنه لا يستند في الحكم عليه إلا قياساً على ماهو موجود في العالم الثاني.

---

[1] ــ المرجع نفسه صص 380-381.

[2] ــ جلال محمد عبد الحميد موسى، نشأة الأشعري وتطورها. (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982م)،ص289.

[3] ــ ابن تيمية، الفتاوي المجلد السادس، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم (الرباط: المكتب التعليمي د ت) ج2 ص 399.

ومن ثم فلا مفر للعقل إذا أراد أن يحكم على العالم الغيبي من أن يسترشد بالوحي وإلا كان حكمه هو ضرب من الوهم والخيال . فيرى الحارث بن أسد الحاسبي (ت243هـ):[أن العقل تحير في إدراك كنه الله تعالى وإن من كمال العقل وتقدير لقيمته أن يعي حدوده، وأول هذه الحدود عجزه عن الإحاطة بكنه الله تعالى: ومن ثم يجب عليه الإقرار بعجزه عن إدراك هذا الأمر، وليس هذا انتقاصا من قيمته بل تقدير للعقل حق قدره، بل على العقل أن يتجه في طريق آخر هو أسلم له في معرفة الله تعالى، وهو معرفة صفاته كما وصف بها نفسه في القرآن لا كما يثبتها اختراع العقل المجرد] [1].

جـ- القرآن الكريم نص على عدم القدرة على إدراك حقيقة تكييف صفات الله تعالى. قال تعالى: " يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً"[2]. [فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن الله تعالى، فيكون المعنى: لا إحاطة للعالم الإنساني بحقيقة الله سبحانه] [3]. كما أن قوله تعالى أيضا: " .. ثم استوى على العرش الرحمن فسأل به خبيرا "[4]. يدل على أن الله تعالى هو الخبير وحده بحقيقة ذاته وحقيقة كيفية ما وصف به نفسه.[فقوله: " فسأل به خبيرا]بعد قوله :" ثم استوى على العرش " يدل دلالة واضحة أن الله تعالى الذي وصف نفسه بالاستواء خبير بما يصف به نفسه لا تخفى عنه الصفة اللائقة

---

[1] ـ الحارث بن أسد المحاسبي، العقل وفهم القرآن. تح حسن القوتلي، ط3(دمشق:دار الفكر ودار الكندي، 1982م)
ص ص170-171.

[2] ـ طه/107.

[3] ـ محمد الأمين الشنقيطي، منهج ودراسات للآيات والأسماء والصفات. (مكة: مؤسسة مكة للطباعة والإعلام،د ت) ص 24.

[4] ـ الفرقان/ 59.

من غيرها "[1]. ولما كان العلم الحقيقي بكيفية صفات الله تعالى لا يرجع إلاّ إلى الله وحده فإنه لا يشكل علينا أمر الصفات المتشابهات ولا يتطلب منا الأمر البحث عن تكييفها حتى لا يؤدي بنا ذلك إلى التجسيم أو التشبيه. وبناء على ما سبق توضيحه يتبين لنا أن علماءنا سلفا وخلفا متفقون على جوهر المسألة المثارة وهي كون الله تعالى منزه عما لا يليق به من صفات المخلوقات وإن اختلفوا في الطريقة أو المنهج الذي نتصوره في فهم ذلك التنزيه.فلا نجعل نحن ما كان بين الراسخين في العلم من اختلاف منهجي صراعا حقيقيا ومذهبيا بيننا معشر المتعلمين يضرنا ولا ينفعنا.

---

[1] ــ المرجع السابق ص 26.